تنكير السّلام في أول الرسائل:
«ابتداء السلام بلفظ النكرة»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فبناء على ما طلب مني في الإجابة عن السؤال المتعلق بتنكير السلام في أول الرسائل فسأكتفي بذكر ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله، إذ بسط الكلام في السلام وما يتعلق بما يكفي ويشفي في كتابه بدائع الفوائد(١) ومن ذلك قوله:

فصل:

وأما السؤال الثامن؛ وهو: ما الحكمة في ابتداء السلام بلفظ النكرة، وجوابه بلفظ المعرفة؟ فتقول: سلام عليكم، فيقول الراد: وعليك السلام؟.

فهذا سؤال يتضمن لمسألتين: إحداهما: هذه. والثانية: اختصاص

(١) بدائع الفوائد للعلامة الإمام شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، المجلد الأول، (٢/١٥٤)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

النكرة بابتداء المكاتبة والمعرفة بآخرها.

والجواب عنها بذكر أصل نمهده ترجع إليه مواقع التعريف والتنكير في السلام.

وهو أن السلام دعاء وطلب، وهم في ألفاظ الدعاء والطلب إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء أو منصوبة على المصدر.

فمن الأول: ويل له. ومن الثاني خيبةً له، وجدعاً، وعقراً، وتربا، وجندلا؛ هذا في الدعاء عليه.

وفي الدعاء له: سقياً، ورعياً، وكرامة، ومسرة، فجاء لفظ سلام عليكم بلفظ النكرة كما جاء سائر ألفاظ الدعاء.

وسر ذلك أن هذه الألفاظ جرت مجرى النطق بالفعل؛ ألا ترى سقيا ورعيا وخيبة جرى مجرى سقاك الله ورعاك وخيبه. وكذلك سلام عليك جاء مجرى سلمك الله، والفعل نكرة فأحبوا أن يجعلوا اللفظ الذي هو جار مجراه وكالبدل منه نكرة مثله.. إلى أن قال: رحمه الله[1] فصل:

وأما المسألة الثانية: وهي ابتداء السلام في المكاتبة بالنكرة، واختتامها بالمعرفة، فابتداؤها بالنكرة كما تقدم في ابتداء السلام النطقي بها سواء، فإن المكاتبة قائمة مقام النطق.

---

(١) انظر نفس الكتاب المذكور ونفس الجزء ص (١٥٦).

وأما تعريفه في آخر المكاتبة ففيه ثلاث فوائد: أحدها: أن السلام الأول قد وقع الأنس بينهما به وهو مؤذن بسلامه عليه خصوصاً، فكأنه قال: سلام مني عليك كما تقدم، وهذا أيضاً من فوائد تنكير السلام الابتدائي للإيذان بأنه سلام مخصوص من المسلم، فلما استقر ذلك وعلم في صدر الكتاب كان الأحسن أن يسلم عليه سلاماً هو أعم من الأول لئلا يبقى تكراراً محضاً بل يأتي بلفظ يجمع سلامه وسلام غيره فيكون قد جمع له بين السلامين الخاص منه والعام منه ومن غيره. ولهذه الفائدة استحسنوا أن يكون قول الكاتب: وفلان يقرئك السلام، وفلان في آخر المكاتبة بعد والسلام عليك؛ لهذا الغرض.

الفائدة الثانية: أنه قد تقدم أن السلام المعرف اسم من أسماء الله، وقد افتتح الكاتب رسالته بذكر الله فناسب أن يختمها باسم من أسمائه وهو السلام ليكون اسمه تعالى في أول الكتاب وآخره. وهذه فائدة بديعة.

الفائدة الثالثة: بديعة جداً وهي جواب السؤال التاسع بعد هذا. وهي أن دخول الواو العاطفة في قول الكاتب: والسلام عليكم ورحمة الله؛ فيها وجهان:

أحدها: قول ابن قتيبة: إنها عطف على السلام المبدوء، فكأنه قال: والسلام المتقدم عليكم.

والقول الثاني: أنها لعطف فصول الكتاب بعضه على بعض فهي عطف لجملة السلام على ما قبلها من الجمل كما تدخل الواو في تضاعيف الفصول.

وهذا أحسن من قول ابن قتيبة لوجوه منها:

أن الكلام بين السلامين قد طال فعطف آخره بعد طوله على أوله قبيح غير مفهوم من السياق.

الثاني: أنه إذا حمله على ذلك كان السلام الثاني هو الأول بعينه، فلم يعد فائدة متجددة، وفي ذلك شح بسلام متجدد وإخلال بمقاصد المتكاتبين من تعداد الجمل والفصول، واقتضاء كل جملة لفائدة غير الفائدة المتقدمة، حتى إن قارئ الكتاب كلما قرأ جملة منه لفائدة غير الفائدة المتقدمة تطلعت نوازع قلبه إلى استفادة ما بعدها، فإذا كررت له فائدة واحدة مرتين سئمتها نفسه، فكان اللائق بهذا المقصود أن يجدد له سلاماً غير الأول يسره به كما سره بالأول، وهو السلام العام الشامل، ولما فرغ الكاتب من فصول كتابه وختمها أتى بالواو العاطفة مع السلام المعرف فقال: والسلام عليكم؛ أي وبعد هذا كله السلام عليكم، وقد تقدم أن السلام إذا انبنى على اسم مجرور قبله وكان سلام رد لا ابتداء فإنه يكون معرفا نحو: وعليك السلام.

ولما كان سلام المكاتب هنا ليس بسلام رد قدم السلام على المجرور

فقال: والسلام عليكم، وأتى باللام لتفيد تجديد سلام آخر. والله أعلم.

وهذه فصاحة غريبة، وحكمة سلفية موروثة عن سلف الأمة، وعن الصحابة في مكاتباتهم. وهكذا كانوا يكتبون إلى نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

هذا، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

